النشأة التاريخية للأدب المقارن في فرنسا

1- العامل السياسي :

- حرص ملوك فرنسا على جعل باريس العاصمة الثقافية لأوروبا

- امتداد أثر الثورة الفرنسية إلى مناهج دراسة الأدب من خلال طرح أفكار جديدة مثل : " الحركة والتنوع ، الاهتمام بالإنسان ، الإيمان بالحقائق المتعددة"

- ظهور تيارين في فرنسا :

أ-تيار قومي يرى وجوب الاقتصار على الآداب الفرنسية ، ويرفض الاهتمام بالتأثيرات الأجنبية .

ب- تيار عالمي يرى أن الآداب الأوروبية نشأت عن عمليات تفاعل واسعة قامت على التأثر والتأثير ، ومن أهم أعلامه : " مدام دي ستايل "

2- العامل الفلسفي :

نشوء الدراسات المقارنة في فرنسا متأثرة بالفلسفة الوضعية الساعية إلى وضع قوانين ثابتة للأدب كالعلوم الطبيعية ، ومن أهم النقاد البارزين في هذا المجال " سانت بيف " 1869 م / هيبولت تين 1893 م / برونتير 19.6 م

3- العامل الاستعماري :

- اقتصرت الدراسات المقارنة في فرنسا في بعدها التطبيقي على الآداب الأوروبية (الانجليزية , الفرنسية , الايطالية , الالمانية, الاسبانية) فضلا عن حرص فرنسا على خلق ثقافة فرانكفونية في مستعمراتها. ومصطلح الفرانكفونية في معناه الحديث يعني إما (الناطق باللغة الفرنسية,أو المحب لفرنسا او الثقافة الفرنسية, أو الخائف من فرنسا او المبغض لها)

لقد تمتعت فرنسا بعدد من المميزات التي جعلتها تكون ملتقى تيارات ثقافية واجتماعية هائلة. ومكنها من ذلك مشروعها الاستعماري المتوسع الكبير. وكانت الحرية الثقافية في باريس قد ساهمت في جعلها عاصمة للنور. وتوفر لها من الملوك الفرنسيين ما دعم مسيرة الثقافة وروادها. وكانت ذات تاريخ أصيل في الأحداث ما يجعلها غير خائفة من مواجهة التاريخ وإثبات أحداثه وأيامه وإنجزاتها فيه. وقد كان شعارها : نشر الثقافة- حرية التبادل الثقافي- تداول المعرفة.فاتجهت في منهجها المقارن نحو الاهتمام بلغتها أو باللغة عموماً، وإثبات الصلات التاريخية بين الشعوب والدول، هادفةً إلى إبراز مظاهر التأثير والتأثر.فكانت هذه العوامل مساهمة في بلورة مفهوم الأدب المقارن عند الفرنسيين.

- أجيال المدرسة الفرنسية:

الجيل الأول: فردينانند بالدينسبرجر، بول هازار، فان تيجم

الجيل الثاني: جان ماري كاري،روني ايتامبل، ماريوس فرانسوا جويار

الجيل الثالث: كلود بيشوا ،سيمون لوجون ، دانيال هنري باجو

المدرسة الفرنسية هي في جوهرها وفلسفتها مدرسة تقوم على تاريخ الأدب، أي أنها مدرسة تاريخية أدبية، ولذلك من الأصــحّ أن تســمى "مدرســة تاريخية". وهي تعرف الأدب المقارن على : إنه العلم الذي يؤرخ للعلاقات الخارجية بين الآداب أي استقصاء ظواهر التأثير والتأثر بين الآداب القومية المقارنة و إنّ الغرض من دراسة علاقات التأثير والتأثّر هو إكمال كتابة تاريخ الآداب القومية.

الأدب المقارن في صورته المبكّرة، بيّن أن تاريخ أيّ أدب قومي ليس مجرّد تاريخ ما يجري ضمن ذلك الأدب من تطورات، بل هو أيضــاً تاريخ ما يتمّ بينه وبين الآداب القومية الأخرى من تبادل وتفاعل. فمنهجية الأدب المقارن منهجية تاريخية تجريبية، تتمثل في جمع الوثائق والأدّلة والوســائط وكلّ ما يبرهن بصــورة ملموسة ويقينية على وجود علاقات تأثير وتأثر بين أدبين قوميين أو أكثر .

ولنظرة المدرسة الفرنسية التقليدية إلى دور الأدب المقارن وحقله العلمي ومنهجيته أسس وخلفيات نظرية وفلسفية، تأتي في المقدمة منها النزعة التاريخية في دراسة الأدب، يرى أصحاب هذه النزعة أنّ تاريخ الأدب هو، في جزء كبير منه، تاريخ مصادره ومواضيعه وموادّه الأدبية التي تنتقل داخل الأدب القومي وبين الآداب القومية بصــورة يمكن دراســتها وتتبعها بالوثائق والأدلة .فالدراســة المقارنة لتلك الآداب تدلّ على وجود علاقات تأثير وتأثر بينها على أساس من السببية الصارمة. إنّ انتقال مادّة أدبية من أدب إلى أدب قومي آخر ليس مســألة عشــوائية، بل هو علاقة تاريخية قائمة على الســببية، وهذا ما على الأدب المقارن أن يبرهن عليه بصورة لا تقبل الجدال، أي أن يبيّن مصدر التأثر وواسطته ونتائجه.

ترافق انتشار النزعة التاريخية في الدراسات الأدبية مع انتشار نزعة أخرى، هي النزعة الوضعيّة ، وهي فلسفة ترى أنّ المعرفة الصحيحة هي التي تستند إلى قاعدة تجريبية. أمّا المعرفة التي تقوم على التخمين والحدس والتفكير والمقارنة فقط، فهي معرفة غير موثوقة ولا يعتدّ بها. انتقلت هذه النزعة إلى الدراســات الأدبية أيضاً، ودعا أنصارها، وأبرزهم الناقدان الفرنسيّان (سانت بف) و (تن) إلى تحويل تلك الدراسات إلى علم موضــوعي يقوم على أســاس تجريبي كالعلوم الأخرى . وقد عبّرت النزعة الوضــعية عن نفســها في الأدب المقارن من خلال دعوة "المدرســة الفرنســية التقليدية" إلى اعتماد المنهج التجريبي في دراســات التأثير والتأثر، وذلك بعدم الاكتفاء بتخمين وجود التأثير، بل البرهنة على وجوده بالأدلة والوثائق الملموســة التي لاتدع مجالاً للشك.

شــكّل هذا التواؤم بين النزعتين التاريخية والوضعية أساساً نظرياً لما يعرف بالمدرسة الفرنسية في الأدب المقارن، وهي مدرســة ترى في الأدب المقارن علماً يدرس علاقات التأثير والتأثر (أو التبادل) بين الآداب القومية بطريقة علمية صارمة.

بيد أن دراســات التأثير والتأثر أفادت الادب من حيث أنها قد برهنت على بطلان مقولة "الاكتفاء الذاتي" للآداب القومية واســتقلالية تلك الآداب وتفردها. فليس هناك أدب قومي لم يتأثر بالآداب القومية الأخرى بصورة من الصور. كذلك فإن لأصالة الأدب القومي وخصوصيته وتفرده حدوداً. فقد دلّت دراسات التأثير والتأثر على أنّ هذه الأمور نســبية، وأن الآداب في حالة تفاعل وتبادل، وأخذ وعطاء، واســتيراد وتصــدير. وبذلك شكّلت دراسات التأثير والتأثر رداً على دعاة التعصب القومي في الأدب الذين يزعمون أن أدبهم أصيل بصــورة مطلقة، وخالٍ من المؤثرات الغريبة. ومن جانب آخر لقد ضــيّق الأدب المقارن التقليدي رقعة

الدراسات المقارنة، إذ حصرها في قمقم التأثير والتأثر، كما أقام جداراً مصطنعاً بين الجوانب التاريخية وبين الجوانب الجمالية والذوقية لدراسة الأدب، أي بين تأريخ الأدب والنقد الأدبي، وهذه نقطة مقتل دراسات التأثير والتأثر.

دراسات التأثير والتأثر قد تحولت عملياً إلى شكل من أشكال دراسات "السرقات الأدبية"، يقوم فيها الطرف المتأثر بدور "السارق"، بينما يقوم الطرف المؤثر بدوره "المسروق"، وبذلك يتحول الطرف المؤثر إلى الأصل أو "المنبع" أو "المصدر"، وهو لذلك الطرف الأصيل، خلافاً للطرف المتأثر، فهو التابع المقلّد الذي يفتقر إلى الأصالة. ولا عجب بعد ذلك في أنّ تورّط دراسات التأثير والتأثر في النقاش الدائر حول الأصالة وهي قيمة نقدية ، لابل أن يصبح إثبات أصالة أدبنا القومي هدفاً رئيساً لتلك الدراسات. وهكذا تحولت دراسات التأثير إلى شكل من أشكال النقد الأدبي، وسقط أحد المقومات المنهجية للاتجاه التاريخي الوضعي في الأدب المقارن. لعبت دراسات التأثير دوراً قومياً وبدلاً من أن تكون وسيلة لتجاوز ضيق الأفق القومي، هاهي تخدم النزعة القومية، وبدلاً من أن تبيّن أنّ الآداب ليست مكتفية ذاتياً، بل تتبادل المؤثرات، انعكست الآية، وتحوّل الأدب المقارن التقليدي إلى وسيلة لإظهار "أصالة" الأدب القومي، أي استقلاليته وتميّزه عن الآداب القومية الأخرى. ولأنّ التصدير أفضل من الاستيراد في الثقافة ، والطرف المصدّر أو المرسل هو الأفضل والأقوى، وهو صاحب الفضل والأيادي البيضاء على الطرف المستورد المستقبل الآخذ المتأثر. لذا خدمت دراسات التأثير والتأثر نزعة التباهي والتعالي القومي والإقليمي، خدمت دراسات التأثير نزعة التعالي الثقافي الفرنسية، وهي نزعة قومية توسعيّة، شكّلت في الماضي مقوماً من مقوّمات الإيديولوجيا الاستعمارية الفرنسية، وهي تشكل اليوم الأساس الفكري والثقافي لما يعرف "بالفرانكوفونية". مهما يكن من أمر فإن الأساس النظري لدراسات التأثير قد تداعى نتيجة ما وجّه إليه من نقد. فالنزعة التاريخية التي بلغت ذروتها في القرن التاسع عشر قد انحسرت، وكذلك أفل نجم الفلسفة الوضعية. وقد ظهرت اتجاهات ومناهج نقدية جديدة، كالنظرية المادية (الماركسية) للأدب، والبنيوية، والنقد الجديد ونظرية التلقي ونظرية التناصّ، وغير ذلك من الاتجاهات التي تعارضت مواقعها الفكرية مع منطلقات الأدب المقارن التقليدي .

نشأة الأدب المقارن في أمريكا " الثلث الأخير من القرن التاسع عشر

- يشكل المنهج الأمريكي رد فعل للمنهج الفرنسي. من حيث دعوته إلى الإيمان بتعدد الثقافات، و احترامها، و الابتعاد عن النزعة التاريخية .

- إن هذه الدراسات تبلورت في ظل مبدأين :

أ – مبدأ أخلاقي يعكس طبيعة أمة تتشكل من عناصر قومية متعددة تحرص أن تظل تنظر إلى الثقافات نظرة احترام .

ب – مبدأ فكري يقوم على حرية قراءة التجارب الإبداعية، و تعرفها، و ما تحويه من قيم .

المدرسة الأمريكية تستمد أسسها من النقد الجديد، ومن الأنسب أن تسمى "مدرسة نقدية". وكان النقد الجديد أحد التيارات النقدية الحديثة التي تبنّت أنموذجاً جديداً وساهمت في صياغته. إنه أنموذج لايولي

العلاقات الخارجية للأدب كبير اهتمام، ويولي جلّ اهتمامه لأدبية الأدب، أيّ لتلك الخصـائص التي تجعل منه أدباً. فكان منهج هذه المدرسـة توسـيع مجال الادب المقارن بتقديم اوسـع للعلاقات الادبية(الادب وانماط التعبير الاخرى) وملاحقة علاقات التشـابه وفقا لمفهوم التوازي او القرابة ومن رواده (هاري ليفن ، جون فليشتر, اولريش فايشتاين)

نشـأت الأمة الأمريكية مختلطة الأجناس والأفكار، فكان المفهوم الفرنسيـ للأدب المقارن غير مناسـب للوجود الأمريكي بطبيعته هذه. وقد كان الجنس الأصـلي في أمريكا الحديثة هو الجنس البريطاني و اللغة البريطانية الأم وهي الإنجليزية. وأمام هاتين النقطتين لم يكن للأمريكيين جذور تاريخية تمنحها القوة التي تميزها عن غيرها من الأمم(التاريخ). ثم إن تبنيها للمنهج الفرنسيـ لن يعطيعها القدرة على بلورة اتجاه أمريكي خالص لأنها سـتلحق بالاتجاه البريطاني ما يلغي الخصـوصـية التي طالما اعتدت بها أمريكا(اللغة). والنقطة الفاعلة في فضاء الأدب المقارن الأمريكي هو التطور الذي وصلت إليه الدراسات اللسانية اللغوية على يد (فرديناند دي سـوسـير) الذي نقل الاتجاه الدراسي نحو لغة النصـوص، فنقلت أمريكا هذا المفهوم اللغوي البنيوي من المجال النقدي إلى مجال الأدب المقارن.

ومن خلال هذه النظرة أصبح الهدف الذي رسمه المنهج الفرنسي-(الكشـف عن مواطن التأثير والتأثر) هو وسيلة في المنهج الأمريكي، سعياً من الأمريكيين إلى دراسة الظاهرة الأدبية في شموليتها دون مراعاة للحواجز السياسية واللسانية. وكانوا في كل ذلك يتبعون مبدأين هما المبدأ الاخلاقي و المبدأ الثقافي.

المدرسة الأمريكية تستمد أسسها من النقد الجديد، ومن الأنسب أن تسمى "مدرسة نقدية". وكان النقد الجديد أحد التيارات النقدية الحديثة التي تبنّت أنموذجاً جديداً وسـاهمت في صـياغته. إنه أنموذج لايولي العلاقات الخارجية للأدب كبير اهتمام، ويولي جلّ اهتمامه لأدبية الأدب، أيّ لتلك الخصـائص التي تجعل منه أدباً.فأهمية أيّ مقاربة للأعمال الأدبية تكمن في مدى قدرتها على جعلنا نفهم الجوهر الأدبي لتلك الأعمال، أي قيمتها وبنيتها الأدبية، بصـورة أفضـل. أمّا دراسـات التأثير والتأثر فهي لا تقرّبنا من فهم جوهر النصـوص الأدبية، بقدر ما تبعدنا عنه، وتدخلنا في متاهات المؤثرات والوسـائط والعلاقات الخارجية. إنه منهج بات يعرف "بالمدرسـة الأمريكية" أو "المدرسـة النقدية"، وهو منهج يدرس الظواهر الأدبية بصـورة تتجاوز الحدود القومية لتلك الظواهر. فالظواهر الأدبية الرئيسة، من أجناس وتيارات أدبية، لم تكن في يوم من الأيام محصورة في أدب قومي واحد أو مقتصرة عليه، بل تتعداه إلى آداب قومية مختلفة، وكثيراً ما تكون عالمية. وعندما يدرسها المرء دراسة مقارنة فإنه لا يتصنّع شيئاً بل يدرسها في إطارها الطبيعي الصحيح.

إلا أنّ المدرسـة الأمريكية لم تكتفِ بنقل اهتمام الأدب المقارن من العلاقات الخارجية إلى العلاقات الداخلية للأدب، بل تخطّت ذلك إلى المطالبة بأن تنفتح الدراسـات المقارنة على نوع آخر من المقارنات، ألا وهو مقارنة الأدب بالفنون والعلوم وحقول المعرفة والوعي الإنسـاني الأخرى. فالفنون كالموسـيقا والتصـدير، هي ظاهرة جمالية تنطوي على أوجه تشـابه كثيرة مع الأدب. ولذا فإنّ دراسـتها يمكن أن تقرّبنا من فهم الأعمال الأدبية، ويمكن أن تؤدي مقارنتها بالأدب إلى الكشـف عن جوهره. . وباختصار فإنّ جوهر الدراسـة المقارنة للآداب من وجهة نظر "أمريكية"، يكمن في تقريبنا من فهم البنى الداخلية، أي الجمالية للأعمال الأدبية، لافي حصرـ ما تنطوي عليه تلك الأعمال من مؤثرات أجنبية، وما مارسـته على الأعمال الأدبية الأجنبية من تأثير.

فالنقد الأدبي يجب أن يكون مقارناً، يتجاوز الحدود اللغوية والقومية للآداب، والأدب المقارن يجب أن يكون نقدياً يقارب النصوص الأدبية كبنى جمالية، لاكمؤثرات ووسائط. عندئذ يصبح الأدب المقارن نقداً، ويصبح النقد أدباً مقارناً، وتزول تلك الحواجز المصطنعة التي أقيمت بين الأدب المقارن والنقد الأدبيّ

ممّا سبق يظهر أنّ الفرق بين المدرسة الفرنسية والأمريكية يمكن تلخيصه في نقاط هى:

- يتوسّع الأمريكيّون في مقارنة أكثر من أدبين على خلاف الفرنسيين الذين لا يقبلون المقارنة سوى بين أدبين فقط، فالأمريكان والفرنسيّون يتفقون في أنّ المقارنة في الأدب تكون بمقارنة أدب قومي مع أدب قومي آخر ولكنّهم يختلفون في كيفيّة تلك المقارنة.

- ركّز الفرنسيّون على مسألة الصلات بين الآداب وعلى مسألة التأثّر والتأثير ويفضّلون في هذه الحال الاعتماد على وثائق ملموسة تؤكّد تأثير أحد الأدبين بالآخر، بينما لم يكن من ذلك شيء عند الأمريكان.

- انهمَكَ الفرنسيّون في البحث عن الصلات ودراسة التأثير والتأثّر، وبذلك فقد أغفلوا مسألة مهمّة وهي مسألة التذوق الفني والجمالي للأدب.

- يكون الخلاف الأكبر بين الفرنسيين والأمريكان في مسألة المقارنة بين الأدب وحقول المعرفة الأخرى، فالفرنسيّون اقتصروا المقارنة بين أدبَين اثنَين بينما كان رأي الأمريكيّين مختلفًا.

- وقد ظهر لدى روني ايتامبل وهنري ريماك نزعة توفيقية بين تاريخية المدرسة الفرنسية وجمالية النقد في المدرسة الامريكية ودعيا الى المصالحة والوساطة بينهما

نشأة الأدب المقارن في الاتحاد السوفياتي و أوروبا الشرقية

- ارتبطت نشأة الدراسات المقارنة في الاتحاد السوفياتي " السابق " و أوروبا الشرقية بالفلسفة الماركسية , و كانت إشكالاتها مرتبطة بهذه الرؤية و ناجمة عنها .

- تأثرت هذه النشأة بالفلسفة الماركسية ذات الطبيعة الشمولية.

- تأخر ظهور الدراسات المقارنة في الاتحاد السوفياتي،لأنه كان ينظر إلى الأدب المقارن على أنه مرتبط بالثقافة الغربية ، مما يجعله خطرا على وحدة الاتحاد .

المدرسة السلافية هي اتجاه مقارن يستند إلى نظرية الأدب الماركسية، أي إلى المادية الجدلية، ولذا فمن الأصحّ أن تدعى "مدرسة مادية جدلية" أو ماركسية. والفلسفة الماركسية فلسفة مادية ديالكتيكية تاريخية، قد انتقدت الفلسفة الوضعية ورفضتها بشدة، وعدّتها اتجاهاً فلسفياً بورجوازياً. ولا عجب في ذلك. فالماركسية هي وريثة فلسفة هيجل الجدلية، وهي فلسفة تملك نظرة شمولية إلى الكون والمجتمع والثقافة والأدب. وهي ترى أنّ التطور التاريخي ليس عشوائياً، بل هناك قوانين وقواعد تتحكم فيه وتوجهه، وعلى رأس تلك القوانين قانون الصراع الطبقي. فالتاريخ من وجهة نظر ماركسية ليس تكراراً للماضي، بل حركة موجهة، حركة تجاوز وانتقال مما هو قائم إلى مرحلة أعلى وأرقى من مراحل التطور الناجم عن قوانين

الجدل أو الديالكتيك. وتقول النظرية الماركســـية بوجود علاقة جدلية بين القاعدة المادية أو البناء التحتي للمجتمع، وبين البناء الفوقي الذي تشـــكّل الثقافة والأدب أهمّ مكوّناته. وفي نظرتها إلى العلاقة بين البناء التحتي والبناء الفوقي، أي بين المجتمع والثقافة، ولذا فإن دراســة الأدب لايجوز أن تتمّ بمعزل عن دراســة المجتمع، والتطورات الفنية والفكرية التي تظهر في الأدب لايجوز أن تدرس بمعزل عن دراســـة التطورات الاجتماعية.

كان من الطبيعي أن يحصـــل تناقض جذري بين أدب أســـاســـه النظري هو النزعة التاريخية والفلســـفة الوضعية، أي المدرسة الفرنسية التقليدية في الأدب المقارن، وبين نظرية الأدب الماركسية التي تقوم على الفلسفة المادية الجدلية التي ترى في الأدب شكلاً من أشكال الوعي الإنساني الذي يعكس الوجود الاجتماعي المادي للناس مثلما تعكس المرآة الأشياء . صحيح أنّ الاتجاهين كليهما يقولان بتاريخية الأدب، وبإمكانية كتابة تاريخ الأدب، ولكن شـتان بين تصـوريهما لذلك التاريخ! فالمدرسـة الفرنسـية التقليدية في الأدب المقارن لا تهتمّ إلاّ بما ينجم عن عوامل التأثير والتأثر من نتائج أدبية. أمّا الاتجاه الماركسيـــ فهو يرى أنّ هناك قوانين تتحكم في حركة الأدب وتاريخه. فتطور الأدب لا يتوقّف على عوامل التأثير والتأثر، ولا ينجم عنها بقدر ماهو ضرورة حتمية يمليها تطور المجتمع، أي البناء التحتي بالدرجة الأولى، والبناء الفوقي بدرجة أقلّ. وهذه القوانين عامة، تسرـــي على الآداب كلّها. أمّا الفروق بينها فهي ترجع إلى فروق في درجات التطور الاجتماعي. فالأساس هو التشابه بين الآداب والثقافات لأنها تعبّر عن أوضاع اجتماعية مشتركة بين المجتمعات البشرية. وهذه المجتمعات متشابهة رغم ما بينها من فوارق قومية.

المقولة الرئيســـة لنظرية الأدب الماركســـية ترى أنّ هناك علاقة جدلية بين الظواهر الأدبية وبين البنية الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع. ومن وحي تلك المقولة وضع جيرمونسكي نظرية "التشابه النمطي" أو "التيبولوجي". فهناك من التشـــابه بين الآداب مالا يمكن ردّه إلى عوامل التأثير والتأثر، ولكن يمكن إرجاعه إلى مستويات تطوّر المجتمعات. فالمجتمعات التي بلغت بناها الاجتماعية مستويات متشابهة من التطور تتشابه أيضاً في بناها الأدبية. أمّا المجتمعات التي تتفاوت درجات تطورها فإنّ بناها الأدبية تتفاوت أيضاً. و إن الاختلاف في توقيت ظهورها لايمكن أن يفسرـــ إلا باختلاف درجات التطور الاجتماعي. ثم يأتي عامل التأثر والتأثير، أي الاستيراد الثقافي، ليسرّع ذلك التطور ويقويه. فلو لم تكن الحاجة قائمة في الأدب المتأثر، لما أثمرت عمليات التأثير والتأثر البتة. إنّ الأساس في تلك العمليات هو حاجة الثقافة المستقبلة، لاحاجة الثقافة المرسلة. وعلميات الاستيراد الثقافي تخضع لحاجات الطرف المستقبل، وليس العكس. وبذلك تمكّن جيرمونسكي من استيعاب قضية التأثير والتأثر. أما الدور الأساسي فهو للتطور الداخلي للأدب، ذلك التطور الذي يواكب تطور المجتمع. فعندما يتطور المجتمع، فإنّ تطوره يخلق الحاجة إلى تطور أدبي يواكبه. وبذلك قدّم فيكتور جيرمونسكي مساهمة قيّمة في تفسير ظاهرة التطور والتبادل الأدبيين. ومن رواد هذا الاتجاه ايضا الكساندر ديما , استيفان زويتر

وقد وصفت المدرستان الفرنسية واالامريكية في الادب المقارن بالمدرسة الغربية في حين وصفت المدرسة السلافية بالمدرسة الشرقية.